



كنا في اوائل ليلة من ليالى الصيف عندما قدمنى احد
الاصدقاء الى السيدة « ف » وهى جالسة فى فندق « تيجرس »
ببغداد .

كان منظر هذه السيدة الوطنية السافرة فى بلد محجب فى شرفة
فندق عام كمنظر الزهرة الذبقة فى سفح جبل ...

وليس من اجل هذا فقط كانت مهبط الابصار فى مجلسها المنعزل
ولكن كذلك من اجل شعرها فاخم الغوير وهذه الثياب
السوداء المترفة الى اسد على جسمها النحيل ، وهذا
الشحوب الذى شاع فى وجهها اضامر الحزين كأنه ترجمان
لقصه شجن مكتوم ، وبلا حص من اجل عيونها الفتنة الشاحصة
بلا تعامل ولا سام الى صفحة نهر دجلة كنما هى ترعى موجة
الهادى الكيل

وثارت فى نفسى على طول مراها لهفة القصاص ، فلم اكد
ارى السيدة تعيق من غيبوبتها لحاله وترد على تحية صديقتى
بابتسامة ، حتى قلت اتعرف هذه السيدة ؟
قال نعم .

قلت : من هى ؟ ومن اين ؟ . وما هذه العزلة الغامضة التى
تدفن نفسها فيها ؟



كان ثوبها مشقوقا على ذراعيها وبين العنق والنهدين عن كوى
يطل منها جسدها العاجي

عبي صديقي كأسه وقال: انها امرأة من غير هذه الدنيا ، انها طيفافر من القمر ان الله اعطاها من كل شيء : الثروة والجاه وفتنة الحور، وصوت الليل ، وسداجة شد من سداجة الطفل ، واحساسا ارق من احساس الشاعر الاعمى ، ثم سلبها نعمة واحدة كانت خليفة ان تصل بهامع كل هذه المواهب الى عرش، نعمة الانس بالرجال !

انحدرت من اسرة اسرائيلية وعندما مات الاب وهى طفلة رفض الجاهل لسبب ما ان يسمح بدفن رفاته في مقابر اليهود وتركته الام كالمجنونة تلعن وتجدف وتنتحب فصادفت في طريقها مدافن المسلمين فصاحت بالحارس ساخرة : -

- اعلى قبوركم انتم ايضا اقفال ؟

ولم يفهم الحارس لاول وهلة ما تريد

فقالت : - اترفضون ايواء ميت من موتاكم في هذه المقابر ! فقال الحارس :

هذه ارض الله فكيف تشييق عهد من عباده ؟

قالت - حتى ولو كان مذنباً ؟

قل - ان الله يغفر الذنب يقبل التوبة ؟

قالت - حتى لو كان من غير دينكم ؟

قال - حتى لو كان وثنياً ، ان الدين لله والروح يتولاها

سبحانه ، والتراب للتراب ، ودفنت الام فقيدتها في مقابر المسلمين وعندما عادت اعلنت اسلامها واسلام ابنتها ، وموت الايام وماتت الام وشبت الشبية وترتزوجت بلا اكتسار من اول مسلم عرض عليها الزواج

كان لزوجها هذا جشع النفس ، وقلب البضى ، وعقل الحمارة ، فكرهت من اجله المسلمين كما كرهت من قبلهم اليهود من اجل ذكرى الاب المدفون في القبر الغريب . وعاشت بين هؤلاء وهؤلاء ، ترقص على السلم وتحجل

كالغراب ، لاهى تمشى كما يمشى العصفور ولا هى تختال كما
يختال الطاووس . قصتها فى زواجها قصة امرأة معذبة .
محرومة من عزاء الايمان بالله ، ومن راحة الطمأنينة الى كنف
الرجل المحبوب

وانفسخت هذه الزيجة على طلاق . وعاشت السيدة ف . .
ارملة . . ارملة حزينة فى عنفوان الشباب . عاشت بلا اهل ، ولا
اصدقاء لان الدرس القاسى الذى تلقته عن زوجها علمها ان تكفر
فى قرارة قلبها بعواطف الرجال

عاشت وحيدة تستقبل فى قصرها ، القلائل من ضيوف
المصادفة تختارهم بمقياس عجيب ، وتحتقر ما يقول الناس
وما اكثر ما يقولون

لم ير فى بيتها يوما شابا غنى جميل ، لان هذه الصفات كانت
من صفات الزوج البغيض

وتكاد تختنق اذا حدثها محدث من ضيوفها عن الحب او الدين
او الماضى او وجهها الجميل او نظراتها نظرة الطامع فى جسد
او مال .

ومع ذلك - وهذا اغرب ما فى امرها - كان حديثها المفضل
دائما حديث الشعر والادب والغناء وما فى الكون من جمال .
فان اخرجت على غير هذا صمتت صمت المول . وان دفعت الى
مياها الخطرة استجالت سدا جتها الى شمسوس هرة
تتحفز للفضال

يقول كثير من الناس انها امرأة متكلفة ويقول آخرون انها
تعيش فى ذكرى غرام ، ولا تعد من شائيتها من يصفها بانها
مخلوق شاذ نصفه رجل ونصفه امرأة . . ايهم اصدق انى
لا ادري ، والله وحده يعلم . .

* * *

قدمنى صديقى الى السيدة « ف » على انى شاعر مثله .

ومصرى غريب يريد ان يعرف شيئا عن اهل الديار . وفي
اثناء تحية التعارف المعتادة كنت احس ان نظره عينها الفاحصة
تنفذ في جسمى نفاذ الشعاع الكهربائى المجهول . فأشعر ان
جسدى قد تعرى من كل مايكسود واصبحت امامها هيكلًا من العظم
منضما على نفس وروح . وبدالى من شبح ابتسامة ومضت
بين شفتيها ، اننى تلميذ نجح فى متحان ..

ودعنا السيدة ف .. الى العشاء .

خيل الى وانا ادخل بينها نى مقبل على كهف .. كأن بيتها
قائه وراء باب ضخم من شجر السنديان . فى زقاق صغير
تتلاقى الشرفات المهدمة على جانبيه كأنها طلال بعداد القديمة
تبكى على عصر الرشيد . ووهمت فى الظلمة انى ارى حبلا
باليا يتدلى من احدى هذه لشرفات يزميل ممزق يسأل
الفادين والرائحين عن ابي نواس ، - اين ؟ ولم اطل سوى هذا
الماشق اسالى ؟ فلا يجيب منهم مجيب

ويا لله من هذا الكهف ، يالله من هذا القصر النائم فى احضان
دجلة مزملا بثوب ممزق من هذه الاطلال
يا لله من هذا الشرف والسرف الذى تركتنا السيدة فيه لتبدل
ثيابها وتعود

هذه الارائك . وهذه الحشايا . وهذه السجف من
المخمسل الازرق منمنمة بوشى الحرير . هذه الاصداف لمرمرية
تتفتح كل منها على تمثال امرأة نائمة ، يشع من صدرها العارى
نور ضئيل مختلف الالوان

وهذا الطنف العالى يطل على مياه دجلة فى ضوء القمر الطالع ،
وعلى مباني الكوخ فى الضفة لآخرى موشية من نوره الخافت
يمثل غلالة الحلم البهيج

وامرأة .. امرأة جميلة فاتنة ، تعيش فى هذا الوطن الساحر
بلا رجل .

تناولنا العشاء . واستأذن صديقي لموعد واستأذنت معه ،
فضحكمت وقالت اتخشاني ؟

قلت - كلا . ولكن . .

قالت - ولكنك شرقي مسلم متعصب ان يقول الناس عنك انك
أنست ساعة وحشة امرأة !
كنت محرجا في الواقع ، فتركت صديقي يخرج ، وقابلت
هذه الدعوة الجريئة بامتنان .

ولبثنا زمنا نتحدث عن الهرم وابي الهول وعن نخيل الجزيرة ،
ومائة شيء وشيء على ضفاف دجلة مقارنة بمثلها على ضفاف
النيل حتى سألتني فجأة وهي تقوم الى الشرفة : -
كيف ترى قمر بغداد ؟

قمر بغداد . . !

كنى بالملائكة صبوا كل مافي الجنة من عصير البنفسج في سماء
بغداد . ان الذي لم ير قمر بغداد في ليلة من ليالى الصيف . عائما
في هذا البحر القدسي الازرق لم ير القمر !

شخصت الى السماء اتطلع الى القمر كالحائر المشدوه .
واحتسيت كسي ولم اقل شيئا . . وأحسست ان كل
ما أستطيع ان أقول ان يعدو في هذه الاذن ان يكون زندقة مرفوعة
الى عرش القمر !

وبدا لي من عينها ان صمتي كان ابلغ في اذنها من كل ما أردت
ان أقول .

ومضت هي تقول : -

- اني أحب قمر بغداد ، وأحب ان اشعر به يغمري واذراقة في
السري . . لقد عبت الهين ولكني لم اخلص لغير القمر :

كانت تتحدث بصوت حالم ، وكان ثوبها الابيض الموسي
بالبنفسج - ويا الله من هذا البنفسج الذي غمر كل شيء حتى احلامي
في هذا المساء - كان ثوبه مشقوقا على ذراعيها وبين العنق والهددين ،

مشقوقا عن كوى يطل منها جسدها العاجى ، يلهب الدم فى عروق الشيخ ويبعث الروح فى رفات الميت البالى . .

لقد كانت تحدث وتاكل وتشرب ، وتطارح الشعر ، وتغنى على العود ، وتجلس على هذا المقعد ، أو تتمدد على هذه الاريقة كأنها فى كل عمل تعمله وكل قول تقول له شاعر يؤلف قصيدة ، يستلهم معناها من وجه القمر !

لاتكلف ولا حرج ، وكان هذا الجالس معها صديق العمر ، كأنه ليس غريبا عرفته منذ ساعة ، وليست امرأة منفردة برجل ، وفى هذا الحيز المحدود المثير الأمر بأجمل ذكريات الرشيد . كان صوتها وهى تحتضن العود وتغنى لنفسها وللقمر حزينا كوجهها الشاحب الحزين :

يانار حيل اضرمى واشعلينا ومن حكى النميمة وينس علينا
عسى لا طال عمر الواشى علينا فرق روحين كانت سوية !
ولقد فعلت النار ، واججت بها نشوة الكاس ، وخيل لى أنها
روح تنادى من بشيد ، روح تبكى وهامى ذى دموعها تسيل .
وعميت عينى وروحي عن كل شيء ألا عن هذه المرأة الممددة ،
وهذه الكوى المفتوحة فى ثوبها المزركش ، يقبل شعاع القمر منها
هذا الجسد المغرى الناعم ، الطير

وكنى بروح المتنبى تتقمص احدى الدمى المتجردة فى أصداؤها
المرمرية وتغنينى ساهرة

أصخرة أنا مالى لاتحركنى هذى الكؤوس ولا تالك الاغاريد
والقمر . . وآه من قمر بغداد ! خيل لى أن وجه القمر يهمس فى
أذنى شعاعه الفضى الهادى : -

لست رجلا ! هذه امرأة امامك . . . امرأة فى ساعة
ضعف . . . كن رجلا وتقدم . كن رجلا وأمسح دموعها بقبلة !
- امسح دموعها بقبلة !

— امسح دموعها بقبلة !

وأطعت نداء القمر . .

لو كانت جشة لما تقبلت بأبر من هذه الحورية الممددة قبلتى
التي أودعتها قلباً يتلظى بالسعير !

أنها لم تقاوم ، ولم تستعجب ، ولم تصنع شيئاً أكثر من أن
جلست في مقعدها متراحة وزمت ما بين حاجبيها ، وقالت في صوت
هادئ خافت . . . صوت قاض رقيق ينطق بحكم اعدام !

— أهكذا انت ؟ . . . أهكذا تورد الابل يشاعر ؟ !

اليك غنى ولا نعم . . انك دنست عيكل القمر . وانسللت

الى قلبي بوجهك القبيح ولسانك الحلو كما ينسل الثعبان .

وخرجت من جنتي أعض الناملى نادماً كما خرج آدم من جنته . .

خرجت منها ولكن بلا حواء .

وويلي من القمر . .

ويلي من همس القمر في سماء بغداد ! !



أبى : -

استطيع اليوم ، وبعد جهاد عنيف ان ارفد اليك بشرى توفيقى
في المهمة التي اخترتني لها وهى انقاذ اخى من الهوة التي كان
يحفرها بيديه لمستقبله ، وبالتالي الاعمال الضخمة التي علقها عليه ،
ومن اليوم تستطيع ان تطمئن على ولدك ، وتستطيع ابنة عمى ان
تطمئن على خطيبها ، ونستطيع جميعا ان ننام لأول مرة بعد ثلاثة
اشهر نوم الرضى والهدوء

لم اشأ يوم جئت القاهرة ان واجه اخى بسخطك ولعناتك
وبراءتك منه الى يوم القيامة ، ان اقدم على الزواج من هذه المرأة
التي تعدها امرأة لكل الرجال ان الثوره والفضب لا يحلان
مشكلا وقد كنت قمينا ان فعلت ان احطم قلبه الغرير ، وقد كان
من المؤكد ان اخرج من المعركة خاسرا ان دفع الطيش اخى الى
العناد ، ودفعه العناد الى الجماع ، والجواد الجامح لا يعبا بشيء فى
الطريق .

سامحنى اذن يا أبى ان كنت كذبت عليك فزعمت لأخى انك
لا تمنع فى ان يتزوج من يشاء ، على أن يكون عزمه مبنيا على
مبررات حقيقية وقوية ، لا على شهوة عابرة تطفئ حماسها اول
تجربة من تجارب الحياة ، وعلى ان تكون المرأة التي يختارها جديدة
بان تعاشرها أمه تحت سقف بيت واحد بلا خجل ولا عار . أن الغاية

تبرر الوساطة وقد كانت هذه الوساطة هي الضمان الوحيد
لاكتساب ثقة اخي ، ولطرذ نوازع الطيش والعماد والرعوننة من نفسه
وتركه يقرر مصيره في ضوء العقل والحكمة ، وأمالى الواقع لا آمالى
الهوى والخيال

ولو انك يا ابى رايت شراة المسكين وفرحه ، وهو يلتقم هذا
الطعم لا التمسيت لى الف معذرة من هذا الكذب الصريح ، فقضاء
بدا لى كمحارب غر ، لم يكديرى رايه السلام حتى القى سلاحه ،
واندفع الى الصدر المفتوح امامه بنزق الطفل ، يشكو ويستترف
ويطلب العون بعينه الدامعة ولسانه المحرر من اغلال الوحدة
والخسجل والخوف وانعدام لنصير .

مسكين اخى حقيقته ، لقد واجهته القاهرة الفاتنة بحلف من
مفرياتها لا يغلب . . خضراء لدمن ، ورفقة السوء .
كان ظامًا فشرب ، ساذجا فاندفع ، اعزل فاجتاحه العدو
المفير .

انها فتاة قادمة من الجزائر ، تشتغل فى مرقص ، لها عين اخذت
سوادها وصفاءها عن ليل الصحراء ، وسرقت ثقلبها وفتنتها
من رمالها ، عين تأسر فتطاع ، وفم يدعو فيجواب ،
وسطوع كسطوع النجم ، وروح تتبارى مع جسمها فى السحر
والاغراء !!

ان ابنه عمى جميلة حقيقته ووديعه وطيبه ، ولكنها مومفورة
يا ابى - تبدو امام هذه الفتاة كدمية من طين !

والقد غفرت لها منذ رأيتها كل شيء الا ان نقف وقفة الساحر
الشرير بين اخى ومستقبله ، والا ان تجعل منه قاتلا للفتاة البريئة
التي مد لها فى جبل الامل حتى اصبح كل شيء لها فى الوجود
اننى لا ادري ماذا كنت افعل و احب اخى هذه المرأة ، عن علم
بها وخبرة بحياتها ، وثقة فى حبهار وفائها ، ولعل اقله كان ان انفض

يدى من أمره وأمرها ، وأتركه حرا يفعل ما يشاء ، ولكن المسكين وهذا ما حزن في قلبي ، واقع تحت سلطان وهم عجيب ، انها - على رغم البيئته التي تعيش فيها - تمثال للشرف والطهر والعفاف ! وقد كان على ان ابرهن لآخى انها ان امتازت على زميلاتها جمالا او فتنة في هذه الدنيا المشبوهة فهي لا تعدو ان تكون احداهن من حيث الاتجار بالعرض والمساومة عليه مع اول المشتريين .

على ان هذا البرهان لم يكن يسيرا ، كما قدرت ، فقد كانت الفتاة مقلدة في اصدقائها ، قليلة النبل ، عصبية ، متكبرة ، تنظر الى الدنيا التي حولها باحتقار ، فشلت في البداية في وضع اصبع اخي على جثة الخنزير المسجى تحت هذا الضريح المزركش بالمرمر المسقول .

ولكننى لم اياس ، وتبعتها كالظال ، وبذلت لها عن سخاء ، وساعدنى الحفل ، ان كان اخي يستعد لامتحان الاخير ، فاقنعتة ان فشله في الامتحان منناه كتاب احتقارها الابدى له بلا ثمن فانزوى في البيت كاره استعيد ما فاتته ، وكان بعده عن مجال المعركة ، وانسغاله فيما هو اجدى وانفع ، اول طليعة من طلائع الانتصار ، وفي النهاية اتصلت بها فمالنى منها انها لا تكاد تحسن لآخى بوجود ، انها تكبره سنا وتجربه ، وتنظر له من حيث تنظر امرأة محسنة الى طفل يتيم ، وقد كانت تستمع الى مشاريعه الزوجية على انها فكاهات يتحدث بها معها عند ما لا تجد للحديث مجالا سواها ، وتشغل نفسها بالاصغاء اليها عندما لا تجد شاغلا الاها .

ولما اخبرتها خبر الثورة التي كاد يشعل نارا بين اهله ، ضحكت حتى كادت من ضحكها نموت !

وارحمناه الطفل المسكين ! !

لقد اضطرت اضطرارا عقب فراغه من الامتحان ان ادعه